وبوضوح : لقد اشار حادث حاصبيا الى خلل خطير في علاقة المقاومة بجماهير الجنوب ، وعبر عن انفجار لمأزق متقادم ، واوضح ان سلسلة المعالجات الخاطئة للعلاقات مع الجماهير في جنوب لبنان قد دفعت بالتناقض الثانوي الى سطح الاحداث ...

وهكذا فان ايقاف نظرتنا لحادث حاصبيا عند ابو حميدو ، هو بمثابة التزلج على قشرة المشكلة !

والذهاب الى جذر المشكلة هو الذي يفسر لماذا اخذ حادث حاصبيا كل هذا الحجم الذي لا مبرر له ، في حين ان احداثا مشابهة قد وقعت في امكنة مختلفة ، ولاقت حلولها نتيجة لمبادرات من المقاومة حينا ، او من ممثلي الاهالي حينا اخر .

وقد تراكمت الامور لفترة طويلة كي تصل الى ما وصلت اليه في حاصبيا ، ولعلنا نستطيع ان نلاحظ ان ذلك التراكم لم يكن تجميعا مبسطا لاحداث يومية عادية ، ولكنه تركيب معقد لنتائج كانت تصب من خلال الممارسات التالية :

أ ــ ضعف العلاقة بين المقاومة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية والديمقراطية في لبنان، هذا الضعف الذي كان يلجأ احيانا لاخفاء نفسه وراء مختلف صيغ « المساندات » الميكانيكية ، واحيانا اخرى وراء انشاء علاقات مختزة ووجاهات ، ولكن من حيث الجوهر ظلت المقاومة تعتبر نفسها وجودا طارئا وزائدا في الجنوب ، وليس جزءا لا يتجزأ من تحرك وطني ديمقراطي شامل ، مرتبطة به ارتباطا يوميا ، ومنظما من خلال القوى الوطنية والتقدمية .

ب ــ عسكريتاريا المقاومة ، التي اصرت على طرح نفسها فقط من خلال وجود وممارسات عسكرية ، مما ادى الى ترويج فهم خاطىء لمفهوم « القاعدة العسكرية » ومفهوم « تنمية القدرات القتالية » في الجنوب ، وتحويل هذه المفاهيم وغيرها الى ممارسات تتناول حياة الجماهير من الخارج ، ولا تدخل في صلبها وتصبح جزءا من وعيها او من تحركها اليومي .

ج ــ نتيجة لهذا الطابع العسكريتاري لوجود المقاومة في الجنوب ، فان كسل العمليات القتالية وضآلة حجمها وعددها وفعاليتها في الفترة الاخيرة ، قد افقد ذلك الوجود ــ في اعين قطاع كبير من الجماهير الجنوبية ــ قسما كبيرا من مبرراته ، وتضاعفت كمية السلبية في النظر اليه ، وتضاءلت الى الصفر كمية « التسامح » او « التفهم » او « العقلانية » في معالجة الاخطاء الناجمة عن ذلك الوجود الذي فقد الكثير من مبرراته .

د ــ يضاف الى ذلك كله ان عدونا (وهو بدوره حالة مركبة من اطراف مختلفة ومتفاوتة الحجم) يعيش على مبادرات متحركة تعرف كيف تتسرب من خلال هذه الظروف ، وتعرف كيف توجه رياح حربها النفسية ، وغاراتها المعنوية ، وضغوطها العسكرية والسياسية ــ وقد نجح هذا العدو الى حد بعيد في ارهاب جماهير الجنوب وبناء حاجز من الخوف بينها وبين المقاومة ، وهو حاجز سببه الخشية من « عقاب » اسرائيلي توجهه اجهزة مخابرات قديرة ومتسللة جيدا في الجنوب (قبل وبعد حادث حاصبيا ، مثلا ، قامت منظمتان باعدام جاسوسين كان الاسرائيليون قد نجحوا في تجنيدهما من داخل هاتين المنظمتين ، وقد اعدم احد هذين الجاسوسين في ساحة قرية صديقين ــ واثناء ازمة حاصبيا كان كثير من السكان الغاضبين مقتنعا تماما بصحة اشاعة مفادها ان ٢٥ فدائيا على الاقل قد تناوبوا اغتصاب الشقيقتين ــ ولم تكن هذه الشائعة بعيدة عن نشاط مخابرات العدو) .

ومهما يكن فانه يتوجب علينا عدم المبالغة (كما يحدث عادة) باهمية هذا البند الاخير ، بحيث يعطى الاولوية ــ لانه من الواضح ان قدرات العدو هذه لم يكن من الميسور لها